The Arabic language, the struggle of languages, and the challenges of the cultural identity

Thair H. Jasim, PHD
Department of Arabic Language – Al-Kut University College
thair.h.jasim@gmail.com

DOI: 10.31973/aj.v1i137.1409

Abstract:

The Arabic language is a specialty that distinguishes it from other languages of nations, it is the language of the Holy Qur'an, which has been closely linked to it, {We have dropped it down as an Arabic Qur'an, perhaps you may be reasonable} (Joseph: 2), which is still used with its voices, words, and rules to this day, and was deservedly the language of arts, science, and the arts. Each language is closely normative linked to the civilized construction of its nation and is a title of its personality and identity, and a tool for expressing ideas and feelings, a means of understanding, learning, developing, and transmitting experiences. It is the language that transforms individuals from a human group into an interconnected cultural group because it works on the cohesion of social construction, and the interdependence of the people of one nation in two dimensions: the spatial spread of spaced places, and the Tasmanian, which is the communication of subsequent generations with previous generations. Today, and also tomorrow, the Arabic language faces a real and fierce challenge, which it is obliged to deal with intelligently and intelligently, and the biggest challenge that will face the Arabic language in the future is to preserve its peculiarities and ensure its continuity and radiance, and to protect the components, components, and values that form the essential elements of the great Arab-Islamic entity. This calls for attention to the Arabic language, learning, and mastery, working hard to spread it in all fields and at all levels, and addressing its problems in the age of globalization, not only a legitimate need but a cultural and cultural necessity.

Keywords: Arabic language, cultural, identity.

اللغةُ العربيةُ وصراعُ اللغاتِ وتحدياتُ الهُويّةِ الثقافية

د. ثائر حسن جاسم
قسم اللغة العربية – كلية الكوت الجامعة
thair.h.jasim@gmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

للغةِ العربيةِ خصوصيةٌ تميّزُها من سائرِ لغاتِ الأمم، فهيَ لغةُ القرآنِ الكريم، التي ارتبطت به ارتباطا وثيقا، {إنّا أنزلناهُ قُرآنًا عربيًّا لعلّكمْ تعقِلون} (يوسف: ٢)، والتي ما تزالُ تُستعمَلُ بأصواتِها وكلماتِها وقواعدِها نفسِها حتى يومِنا هذا، وكانت بجدارةٍ لغةَ الآدابِ والعلومِ والفنونِ. وترتبطُ كلُّ لغةٍ ارتباطاً تكوينياً وثيقاً بالبناءِ الحضاريِّ لأمتِها، وتُعدُّ عنواناً لشخصيتِها وهُويتِها، وأداةً للتعبيرِ عنِ الأفكارِ والمشاعر، وهيَ وسيلةُ التفاهمِ والتعلمِ والتطورِ وتناقلِ الخبرات. واللغةُ هيَ التي تحوّلُ الأفرادَ من جماعةٍ بشريةٍ إلى مجموعةٍ ثقافيةٍ مترابطة، لأنّها تعملُ على تماسكِ البناءِ الاجتماعي، وترابطِ أبناءِ الأمةِ الواحدةِ في البعدين: المكانيِّ الذي يتمثّلُ في انتشارِهم في الأمكنةِ المتباعدةِ، والزمانيِّ الذي يتمثّلُ في تواصلِ الأجيالِ اللاحقةِ مع الأجيالِ السابقة.

واللغةُ العربيةُ تواجهُ اليومَ، وغداً أيضاً، تحدّياً حقيقياً ضارياً، يفرضُ عليها التعاملَ معهُ بذكاءٍ وفطنة، والتحدّي الأكبرُ الذي سيواجهُ اللغةَ العربية في المستقبلِ، هوَ المحافظةُ على خصوصياتِها وضمانُ استمرارِها وإشعاعِها، وحمايةُ المكوّناتِ والمقوّماتِ والقيَمِ التي تشكّلُ العناصرَ الجوهريةَ للكيانِ العربيِّ الإسلاميِّ الكبير. وذلك يستدعي الاهتمامَ باللغةِ العربيةِ تعلّما وتعليماً واتقاناً، والعملَ الجادَّ على نشرِها في كلِّ المجالاتِ وعلى كلِّ المستويات، ومعالجةَ مشكلاتِها في عصرِ العولمة؛ وذلك ليسَ حاجةً شرعيةً فحسبْ ولكن ضرورةٌ ثقافيةٌ وحضارية.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الهوية، الثقافة.

توطئة:

إنّ الخبرةَ الإنسانيةَ المتراكمةَ على مدى الزمنِ تتمثّلُ في اللغةِ وتجدُ تعبيراً لها فيها، وربّما يصعبُ تصوّرُ قيامِ الحضارةِ بكلِّ ما تعنيهِ هذهِ الكلمةُ من نُظُمٍ اجتماعيةٍ وأنماطٍ ثقافيةٍ وقيمٍ أخلاقية. وتحتلّ اللغةُ الأمُّ مكانَها المركزيَّ في أعماقِ كلِّ فردٍ منذُ الولادةِ، وساعةَ يحبو، وأيامَ يمشي، وتدخلُ في مُحكمِ بنائِهِ النفسيِّ والاجتماعيّ من خلالِ كلِّ لحظةٍ يعيشُها في بيئتِهِ وبين قومِهِ، حتى تكونَ اللغةُ كأنَّها عضوٌ حيٌّ من أعضائِهِ وليست ثوباً يستطيعُ استبدالَه حينَ يشاء. هكذا وبعفويةٍ تامّة، تورّثُ كلُّ الأمّة أفرادَها لغتَها الأصلية، ويجُد

الإنسانُ نفسَهُ وقد ورِثَ ملكةَ لغتِهِ، وبتلقائيةٍ يسبرُ أغوارَها فهماً وإدراكاً ويتمكّنُ منها استعمالا يوماً بعد يوم دونَ مشقّةٍ أو جهدٍ كبير، وتصيرُ أداتَهُ المتقنةَ لتلقّي المعارفَ من حولِهِ في أقصرِ وقتٍ وبأوضحِ معنى. (بيار أشار، ١٩٩٦)

اللغة والهوية الثقافية:

أولا- اللغة:

يمكن النظر إلى موضوعة (اللغة)، من جهات مختلفة، وعلى مستويات متباينة، فليست اللغة مجرد المجموع الكلّي للألفاظ ومعانيها المعجمية، وإنما هي قوام الفكر والثقافة على امتدادهما التاريخي وميراثهما الاجتماعي المتطاول. ولعلّنا نستطيع أن نحدّد أهمّيّة اللغة في هذه المحاور:

١- أهمية اللغة لارتباطها بالإنسان خَلقاً وطبيعة ، إذ تختصّ اللغة وصنوها الفكر بالطبيعة الإنسانية، لأنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتمتع بالقدرة على التفكير المنظّم وتكوين مفهومات وتصورات وأفكار مجردة ، كما أنّه ينفرد عن بقية الكائنات بوجود لغة متطوّرة يستطيع بها التفاهم مع الآخرين ، وفي القرآن الكريم ارتبط خلق آدم باللغة: { وعلّم آدمَ الأسماءَ كلّها}، ومهما كان اختلاف المفسرين كبيراً في شرح أبعاد (تعليم الأسماء) فإنها إشارة بيّنة إلى أهميّة اللغة والكلام الذي هو نطق باللسان وتفكير بالعقل ، بمعنى أنّ في الإنسان هذه الخاصيّة التي تميّزه من سائر المخلوقات .

٢- أهميّة اللغة في أنّها وسيلة التوصيل الشعوريّ والمعرفي فيما بين أفراد المجتمع الواحد، فهي تحمل مواقف وسياقات حياة دافقة فيّاضة زاخرة بالعلاقات والتفاعلات، وهي وسيلة النمو العاطفي والنضج الذهني ومرآة العقل ووعاء الأفكار والمشاعر، ويعطي كثير من علماء الاجتماع والمشتغلين بالعلوم الإنسانية اللغة مع الفكر أولوية شبه مطلقة على كثير من الخصائص الثقافية الأخرى مثل الفنّ والعلم والدين واستخدام الآلات.. ويعدّونهما أهمّ عاملين ساعدا على نشأة الحضارة والثقافة اللتين تمثلان المنجزات المختلفة التي حققها الجنس البشري في نواحي الحياة المادية والروحية (أبو زيد، اللغة والفكر، ١٩٧١: ٣)، و((تشهد حضارة اليوم حركة نشطة لـ(لغونة) الكثير من جوانبها: السياسية والمعرفية والاقتصادية والأخلاقية.. وهكذا أصبحت اللغة رابطة العقد للخريطة المعرفية، والركيزة الأساسية لفلسفة العلم، وما من مذهب فلسفي إلاّ وله شقّه اللغويّ، وما من فرع من فروع الفنّ، إلا ويشارك اللغة كثيراً من سماتها، وما من فرع من فروع العلم إلا وله صلته باللغة)) (نبيل علي، ٢٠٠١: ٢٣٣).

٣- أهمّيّة اللغة لارتباطها بحضارة مجتمعها وثقافته، وتعبيرها عن هوّيته، فاللغة هي الذات وهي الهوية، وهي أبرز مقومات الشخصية الفردية والجمعية والإطار الذي يحفظ كيان

أصحابها ويحدد هويتهم. كما أنها أهم مظهر يتجلى فيه إبداع أبناء الأمة، وهي تعكس ما تنفرد به جماعة من الجماعات، ويذهب بعض الكتّاب إلى القول ((إنّ كلّ ما قد يظهر في لغة مجتمع من المجتمعات من نقص او قصور هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع في ركب الحضارة فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس في اللغة وتجد تعبيراً لها فيها)) (أبو زيد، حضارة اللغة، ١٩٧١: ١١)، وتنوّع اللغات دليل واضح على تنوّع العقليات. وثقافة كل أمة كامنة في لغتها ونصوصها.

٤- واللغة كذلك وسيلة الاتصال الأولى بين الأمم، والجسر الواصل بين خصوصية الذات وعمومية الموضوع، وهي خطّ اتصال للتجارب بين ما ينتجه أمة ما من محمول حضاريّ وثقافيّ، وما ينتجه العالم الخارجي منهما. وسواء أ كان الاتّصال بين الأقوام سلميّاً سلساً أم قهريّاً عنيفاً، فإنّ اللغة ارتبطت تاريخياً بالتأثير المتبادل بين الحضارات أيّاً كانت طبيعة هذا التبادل وعلى أيّ مستوى كان، و((ما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشريّ، إلا ويبطن في جوفه صراعاً لغوياً، حتى قيل إنّه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية)). (نبيل علي، ٢٠٠١م: ٢٣٢)

ثانياً- الهوية الثقافية:

إذن ترتبط اللغة بـ(الهُوية)، هوية الأمة أو الجماعة. و(الهُوية)، في لغتنا العربية، لفظة مشتقّة من الضمير (هُو)، عند دلالتنا على ذات الشيء أو كنهه، بقولنا (هُوَ هُوَ)، أي ما يكون به الشيء هو، ويكون معناها لغةً (الشيء نفسه) بما يجعله دالاً على ما يكون عليه حقّاً ويميزه ممّا سواه.

ويمتدّ مفهوم (الهُوية)، في الاصطلاح ليشتمل على دلالات فلسفية واجتماعية وثقافية ونفسية.. ويطلق على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد مرتبطا بوسطه الاجتماعي الثقافي الذي يعيش فيه. و((وتتمثل الهوية في مجموع الأساليب التي يتميز بها المجتمع، وتشمل العادات والمعتقدات واللغة والتراث المسجل والشفوي والإنتاج الفكري والأدبي والفني، ويجد فيها وسائله للتعبير عن الذات)). (Hogan, 1999, P. 744.)

ويتّفق كثير من الباحثين على أنّ أبرز عناصر تحديد(الهوية): الشعور بالانتماء، والثقافة، والتواصل، والتكامل.. ولعلّنا لا نستطيع، واقعياً، الفصل بين هذه العناصر على الرغم من أنّ كلاً منها يمثل مفهوماً محدّداً، وربّما كان عنصر (الثقافة) هو العنصر الأكثر ثباتاً في الهوية العربية، واللغة هي عماد الثقافة، ((فلولا الثقافة المشتركة المستمدّة من اللغة العربية وآدابها والتي دعمت أوجه التشابه والتكامل والتي تغذّت من عدّة حضارات لما صمدت الهوية العربية حتى الآن)) (بو ملحم، ٢٠٠٦: ٥١)، لذلك يعدّ تشرّب اللغة أهمّ

ركيزة لتحصين الهوية الجمعية. ولذلك سعت أغلب الأمم والأقوام، منذ القدم، إلى المحافظة على لغاتها بتدوين أصولها وإقامة قواعدها.

إن ارتباط اللغة بالهوية يتمثل جليا في مفهوم الثقافة ((وما الهوية إلا الثقافة التي ينتمي إليها الإنسان، وتشكل امتداداً للثقافة التاريخية الاجتماعية. ولذلك فقد اقتضى أن تكون معرفة الذات، وتحقيق هذه المعرفة، مرتبطة بالعودة إلى الثقافة التي تنتمي إليها هذه الذات)) (الصديق، ٢٠٠١: ٣). وقد أدى الارتباط الوثيق بين مفهوم (الهُوية) ومفهوم (الثقافة) إلى انتشار مصطلح (الهوية الثقافية) ، والتي تعني بمفهومها العام: ((العملية التي تميز الفرد بنفسه عن غيره، أي تحديد الشخصية، ومن السمات التي تميز الأفراد بعضهم عن بعض: الاسم ، والجنسية ، والحالية العائلية والمهنية)) (سليمان، ٢٠٠٦: ٩٥) ، وعرّفها (إليكس ميكلفلي) بأنها: ((منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها)) (سليمان، ٢٠٠٦: ٩٦)، وتعدّ الهوية الثقافية من أهم الجوانب التي تميّز أمة عن أخرى، لأن الثقافة السائدة في مجتمع ما هي إلا امتداد للإرث الحضاري والثقافي للأمة ، يتناقله كلّ جيل عن الجيل الذي سبقه صعودا إلى سالف تراث أجدادهم ممزوجاً بخبراتهم، ومن ثم يقوم كلّ بتطويره وفق معطيات عصرهم ، وهذا الميراث هو الذي يحفظ هوية الأمة ويميزها من غيرها.

صراع اللغات وصراع الحضارات:

ويمكن أن نؤشّر ثلاث مسارات في المواجهة بين اللغات وعلاقتها باحتكاك الحضارات قديماً، وهذه المسارات هي:

١-مسار صراع الأقوام والشعوب بفعل الحروب الحاسمة: إنّ صراع الحضارات في الحروب، وغلبة حضارة قوم على حضارة غيرهم، يرفع لغاتٍ ويسقط أخرى، وتهيمن لغة الغالب على لغة المغلوب، وربّما أثّرت لغة المغلوب في لغة الغالب وتمكّنت منها، إذا كان المغلوب يمتلك من أسباب الحضارة ما لا يمكن إلغاؤه، وفي هذا المسار يكون صراع اللغات شديداً والتأثير قوياً ومهيمناً ويكون تفوّق لغة على أخرى أشدّ عنفاً وأكثر نفياً.

٢- مسار طبيعي تلقائي: يتمثّل تاريخياً بالاحتكاك بين الشعوب بفعل الهجرات الطبيعية والرحلات، وبفعل العلاقات التجارية، ممّا يؤدّي إلى انتقال العناصر الثقافية والمعرفية بين المجتمعات وتبادل التأثير بين اللغات، كاحتكاك العرب بالحضارات الفارسية والبيزنطية في الشمال، وباليمن في الجنوب، في رحلة الشتاء والصيف. وفي هذه الحال يكون التأثير عفوياً طبيعيا. وكانت الهجرات وقوافل التجارة تسمح بغير القليل من التأثير الحضاريّ والثقافي.

٣-مسار التأثير الإرادي الذي يتمثّل في التوجه المقصود لنقل المعارف والعناصر الحضارية بين الحضارات عن طريق الترجمة. كسعي العرب، مثلاً، إلى ترجمة الآداب والحكمة الفارسية والهندية والمنطق اليوناني الذي اشتدّ في عصر المأمون العباسي، وكذلك ترجم الأوربيون علوم العرب وآدابهم واستثمروها في بناء نهضتهم الحديثة، وفي هذا يقول روجيه غارودي: ((إن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم (الغرب) إنما ولد في (ما بين النهرين) وفي (مصر) أي في آسيا وأفريقيا)). (غارودي، ١٩٨٦: ١٧)

ويكون من نتائج الصراع بين اللغات ، في الغالب ، تأثير بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً ، وربّما تداخل بعضها في بعض ، أو إضعاف بعضها ، والارتقاء ببعضها الآخر ، ولا يؤثّر الصراع اللغويّ بين الحضارات في لغة ما تأثيراً حاسماً مباغتاً بحيث يؤدي إلى موتها واندثارها ((إلاّ في حالات محدودة سببها اعتداء خارجيّ على أهل لغة معينة ذات مساحة محدودة كما حدث مع اللغة الأوغاريتية التي تعرّضت لهجوم من البحر في عام ١٢٦٠ ق. م. تقريباً ممّا أدّى إلى إحراقها بصورة كاملة ، ثمّ حُمّ عليها القضاء نهائياً في عام ١٢٠٠ ق. م. بالزلزال الذي نعرفه ، ممّا أهلك هذه اللغة)) (الزغبي، ٢٠٠٦: ٤٠٠). وعندما تشيخ اللغة وتبدأ بالموت الذي غالباً ما يتمّ ببطء، فإنّ لغة أخرى تبدأ بالبروز والتغلغل في أماكن نفوذها، ويتجلّى حجم التأثير اللغوي في المعجم اللغوي، أو في المستوى النحوي (التركيبي) الذي يعدّ من أخطر المستويات اللغوية على الإطلاق.

واليوم تتواصل مسيرة الصراع الحضاري في العالم في سيرورة مهيمناً عليها من جهة واحدة تقريباً، تتدفق منها التكنولوجيا والسلع والثقافة والقيم إلى الشعوب الأخرى فتؤثر فيها على مختلف الصعد: أنماط حياتها وعاداتها وقيمها ولغاتها التي هي مفاتيح حضاراتها وثقافاتها. حتّى برزت في السنوات الأخيرة ظاهرة (العولمة) التي يتبلور مفهومها، في ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم، على نحو شامل وحرّ وسريع، والشمولية تعني تبادل السلع والخدمات، وانتقال رؤوس الأموال، وانتشار المعلومات والأفكار، وما يجرّه ذلك من تأثر كلّ أمّة بقيم وعادات غيرها من الأمم.

العولمة وتدافع الحضارات وصراع الثقافات:

يقتحم اليوم تيّار العولمة الجارف الخصوصيات الثقافية والفكرية والحضارية للأمم والشعوب، عبر وسائل الاتصال المتطوّرة والمتنوّعة، التي تعمل على كسر الحواجز الجغرافية والعقائدية والسياسية بين الأقطاب والمراكز والثقافات المتباينة في العالم، وتحويل الأصقاع المترامية إلى قرية تكون فيها السيطرة العملية والغلبة الثقافية لمن له قوة الفعل السياسي والثقل العلمي والتقني والاقتصادي، وبسبب هذا تواجه اللغات الحيّة في عالم اليوم، تحدّيات كبيرة تهدّد خصوصياتها اللسانية الموروثة والمستقرّة. ولا يخلو هذا الأمر، قطعاً، من

خطورة تاريخية تهدّد الأسس الثقافية والخصائص الحضارية وتوهن الهويّة الوطنية والقومية لكلّ أمّة أو شعب، لأنّ اللغات، كما نعلم، أوعية الثقافات وعناوين الحضارات.

فلا تعني ظاهرة العولمة انفتاح الأمم على بعضها بعضاً في تدفق السلع ورؤوس الأموال والخدمات والبشر والأفكار على نحو سريع وبغير حدود ولا قيود فحسب، ولكنّها تعني مع ذلك كله، سرعة انتشار اللغة الأقوى التي تملك مقوّمات القوة والهيمنة والسيطرة على اللغات الأخرى. وربّما ذهب بعض المهتمين إلى ترجيح العامل الثقافي سبباً مركزياً في صراع الحضارات في العصر الحديث إذ يقول صموئيل هنتنغتون: ((إنّ المنبع العميق للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً ولا اقتصادياً بالدرجة الأولى.. المنابع الأولى للصراع ستكون ثقافية.. إنّ صدام الحضارات هو الذي سيهيمن على السياسة العالمية.. سيشكل الصراع فيما بين الحضارات الحلقة الأخيرة من تطور الصراع في العالم الحديث)) (حامد خلي، ١٩٩٩: ٢٥٢). ولكنّنا نفترض أنّ صراع الثقافات هو الشكل الرمزي للصراع الاقتصادي والسياسي للهيمنة على العالم. والحضارة الأكثر تطوراً اقتصادياً وتكنولوجيا ما فتئت تفرض ثقافتها ومفاهيمها وقيمها وأنماط حياتها.

إنَّ تحديات العولمة لا تعدّ ولا تحصى، فالعالم يتغير بسرعة كبيرة، ويتحول تحولات نوعية غير مسبوقة، ويتبلور الآن بشكل سريع مجتمع معلومات عالمي، تنتقل المعلومات فيه بسرعة عجيبة عبر شبكات (الإنترنت) محطمة كلّ الحدود القومية، غير عابئة بأي تحوّطات أمنية، أو محظورات أخلاقية أو دينية، أو تقاليد ثقافية. وإذا كانت مراكز المعلومات القومية الآن يمكن أن تتحكم في المعلومات التي ترغبها الدولة، فإنها لن تستطيع أن تتابع ذلك في مستقبل قريب، بل لم يعد لأيّ دولة الآن قدرة على الرقابة والمنع، فثورة الاتصالات توسع بشكل عجيب الآن انتقال المعلومات، وبشكل لا يعبأ بأيّ معارضة ويتجاوز كلّ المصالح القومية والثقافية. ولذلك تتفاوت التحدّيات من مستوى إلى آخر؛ وفي جوانب مختلفة، فهي تحديات تواجه اقتصاديات الدول واختياراتها وسياساتها، كما تواجه ثقافات الأمم والشعوب وخصوصياتها ولغاتها وقيمها. وهي في كلّ ذلك تحاصر الدول والأمم والشعوب من كل جانب، ولا يكاد يخرج عن هذا الحصار دولة من الدول أو أمة من الأمم، بما في ذلك الدولة التي تعدُّ بحسابات المرحلة التاريخية، القوةَ العظمى التي تملك زمام التحكّم في السياسة الدولية، والتي تفرض على المجتمع الدولي برمته، النظامَ العالميَّ الجديد (التويجري). على أنّ العولمة، برغم كلّ ما يقال فيها سواء أ كان سلباً أم إيجاباً، ليست في المحصلة النهائية شراً يُتّقى أو خطراً يُدفع، وإنّما هي ظاهرة عالمية، فيها سلبيات ولها إيجابيات، ولا بدّ من الحرص على توافر شروط التعامل معها والتكيّف مع متغيّراتها، لتجاوز تلك السلبيات والتغلّب على ما يترتب عليها من مشكلات.

وفي مقدمة هذه الشروط امتلاك القدرات الذاتية، على مستوى الأفراد والجماعات، وامتلاك الوعي الحضاري الرشيد الذي يقود نحو رسم السياسات الحكيمة، واتخاذ القرارات الواعية، للبناء الذاتي، وللانفتاح على آفاق العصر، وللاندماج في تياراته، من منطلق الإيمان بأن حماية الذات وترقيتها والمحافظة على خصوصية الهوية الثقافية والحضارية، رهين بإثبات الحضور في ساحة التفاعل الإنساني وفي مضمار الحوار الثقافي. أما الاكتفاء بصب اللعنات على هذه العولمة الغاشمة الجائرة وشتم الجهات التي تقف وراءها وإشهار الأخلاقية والقيمية الوعظية في وجهها فهو ما لا جدوى منه (التويجري).

وقد تكون حالات الانغلاق والانكفاء الثقافي القائمة إحدى آليات الدفاع وشكلاً من أشكال الممانعة الثقافية ضد الاستسلام للعولمة أو الحضارة العالمية، حضارة الآخر التي تعدّ (غاشمة)، ولكنّ ذلك (موقف سلبي) غير فاعل، لأنّ فعله الموجّه ضد الاختراق الثقافي، لا يعدّل الاختراق، ولا يفعل فيه أيّ فعل، بل فعله موجه كلّه إلى الذات بقصد تحصينها. والتحصين إنما يكون مفيداً عندما يكون المتحاربان على نسبة معقولة من تكافؤ القوى والقدرات ((أما في الحالة الراهنة من عدم تكافؤ القوى فإنّ الانغلاق يتحول إلى موت بطيء، وصاحبه محكوم عليه بالإخفاق)). (الجابري، ١٩٩٨)

لقد كانت الأجيال في كلّ أمّة تتواصل في نقل إرثها الحضاري والثقافي وتطوّره ذاتياً على نحو فيه قدر كبير من الخصوصية والحصانة الذاتية والمقاومة للتغيير الذي يفرضه الوافد الأجنبيّ من الخارج، ولكن ليس في عالم اليوم أي مجتمع أو نموذج اجتماعي ثقافي صاف ونقيّ لم يتعرض للاختراق بشكل ما، ولا أيّ بنية اجتماعية غير منفتحة على العالم بكل نزعاته ونزاعاته الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية. فالعصر التكنولوجي الجديد سائر بالتدريج إلى إضعاف رقعة الشطر المحلي وزيادة رقعة العناصر الشاملة في الثقافات. (عبد الجبار، ١٩٩٨)

إن عمليات التأثير الثقافي بين الحضارات في هذا العصر ليس تأثيراً بين أنداد متكافئين حضارياً وثقافياً. وإنّما هو تأثير قائم، في إطاره العامّ، بين قطبين: أحدهما متقدّم ومهيمن، والآخر متقبّل متأثّر، وما يحدث الآن إنّما يحدث في ظروف هيمنة الغرب وتفوقه، والخصوصية المفترضة، المكوّنة لثقافتنا العربية تخضع لتشويه وتمويت مستمرين، بفعل تفوق الغرب وتعميمه منطقه ونموذجه الحضاري من جهة، والاستجابة البليدة للقوى القائدة للمجتمع العربي لهذا النقل من جهة أخرى. إذن ما الوسائل والآليات والمناهج التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيق الموازنة التاريخية الضرورية في المحافظة على الخصوصيات مع التفاعل البنّاء مع الحضارات الأخرى؟ وأين نحن من ذلك؟ وما موقفنا وموقعنا من هذه المواجهة الشرسة؟ وماذا أعددنا لها لغويا؟ وكيف يمكن تطوير خصوصيّتنا وما يميّزنا

وتوظيفهما في التوسع مستقبلاً بين أقطاب العولمة لتطوير ثقافتنا وحضارتنا بحيث يصبح لنا في المستقبل دور ما في صنع الحضارة العالمية؟

والقضية هنا تستدعي سؤالين هما :

– كيف ترتقي لغة من اللغات التي تمثّل أمّة لها خصوصيتها الحضارية إلى العالمية، وتتوسّع دائرة انتشارها إلى آفاق شاسعة، ويكون موقف فئات عريضة من أهلها منها هو الصدود والعزوف والإعراض، وأحياناً المحاربة؟

– هل العلة في هذه اللغة ؟، بمعنى أن هذه الحالة تعود إلى طبيعة اللغة من حيث هي، أم العلة ترجع إلى عوامل خارجية؟

إنّ الاهتمام بالتخطيط للمستقبل اللغوي لأمة من الأمم، يعكس مستوى راقياً من الوعي بمتطلبات التغيير والتجديد وإعادة البناء على أسس ثابتة راسخة. ودور اللغة في مجتمع المعرفة جوهري: فاللغة محورية في منظومة الثقافة لارتباطها بجملة مكونات الثقافة من فكر وإبداع وتربية وإعلام، وتراث وقيم ومعتقدات .

الثبات والتحول في اللغة في زمن العولمة:

حينما تتعرض أيّ أمّة للاقتحام الحضاري من حضارة وافدة لها من القدرة ما يمكّنها من الهيمنة على مقدرات تلك الأمّة واختراق خصوصياتها، تمتدُّ آثار ذلك كلِّه إلى الهوية والثقافة والفكر والأدب والفنون، وإلى اللغة في المقام الأول. والأمم النامية التي تتعثر في خطواتها نحو استكمال شروط التنمية المتوازنة المتكاملة المستديمة، هي أكثر من غيرها تضرراً من آثار هذا الغزو الذي يتخذ أشكالاً متعددة، ويصطبغ بألوان مختلفة من بلد إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى. وهو الأمر الذي يؤدي إلى نشوء ظاهرةٍ أسمّيها (التلوث اللغوي)، الذي لا يقلّ خطورةً عن أي نوع من التلوث الذي تعرفه المجتمعات الحديثة.

إنَّ فساد اللغة، كما يقول فقهاء اللغة وعلماء الاجتماع، مدخلٌ لاستلاب الهوية، ولإضعاف الشخصية، ولإكراه الأفراد والجماعات على الذوبان في الثقافة الأجنبية التي تغزو اللسان قبل أن تستلب الجنان. ومن هنا يبدأ سريان الضعف في أوصال المجتمع؛ إذ تضعف مقومات الكيان الوطني والقومي بضياع اللغة أو بفسادها، وتضعف بالتبعية، الخصوصيات الثقافية والحضارية. ولذلك كانت العناية بإصلاح لغة الطفل، والسعي إلى تقويم لسانه، وتحبيب اللغة الأم له بشدّه إليها، فالطفل هو أول من يتضرّر من تلوث اللغة .

والعولمة بآلياتها وتقنياتها ونظمها الثقافية قد تؤدي إلى إضعاف معظم اللغات. وطمس المعالم الخاصة للهويات والثقافات المحلية. وتدفع التطور العالمي في اتجاه اللغة الواحدة واللسان الواحد. وإضعاف اللغات أو ضياعها يعني تحطم الوعاء الأول للثقافة. والمخزون التاريخي للتقاليد والأعراف والفنون والإبداعات .

ويرى المفكر المغربي علال الفاسي أنّ الأصل في اللغة أن تتغير وتتطور وتنمو، لكونها مؤسسة للتفاهم بين الناس، والتعبير عن عواطفهم وخلجات أفكارهم، فمتى نما الفكر واختلفت الحاجة وبرز الإبداع، نمت اللغة واختلفت، ووجب العمل على تنميتها والإبداع فيها، ولا يمكن الجمود أو الانقطاع عن الاجتهاد، لأن من صفات العلم البحث عن المجهول واستخراجه واكتناه الحقيقة، ومواكبة المستجدات. وليس مشكل اللغة ومواءمتها للحاجات وقفاً على اللغة العربية، بل إنه مشكل جميع اللغات. (الفاسي، ٢٠٠٠: ٢)

وليس بخاف أن تنمية اللغة تكون بتفعيل نموّها الطبيعي، أي بتوليد الألفاظ والتراكيب الجديدة بالاعتماد على إمكانات اللغة وعلى وفق آلياتها الكامنة في طبيعتها، حتى تتغير وتتطور وتنمو بما يواكب التقدّم الحضاري المتتابع. فإذا جمدت اللغة انكمشت وضعفت. لأنَّ في جمودها فساداً لها. وفساد اللغة فسادٌ للمجتمع . وإن مما لا شك فيه أن اللغات تتطور وتنحط، وتتقدم وتتأخر بحسب درجة الناطقين بها من الرقي الحضاري والتقدم الاجتماعي.

ولكن تطوير اللغة، أيّاً كانت هذه اللغة، هو جزء لا يتجزأ من تطوير المجتمع الناطق بها من النواحي كافة، وليس من الناحية الثقافية فحسب. وإذ كان هذا التطوير قضية ترتبط بنموّ القدرات الذاتية على التغيير الإيجابي في مستويات الحياة العامة، فإن اللغة لن تكون في المستوى الراقي من التألق والازدهار والقوة والقدرة على مسايرة راكب التقدم في الميادين جميعاً، ما لم تتوافر الإرادة الجماعية للإصلاح الذي يبدأ من التطوير والتحديث .

إنّ رقي اللغة وقوّتها لا يقومان في فراغ ولا يعتمدان على تنظير اللغويين وذوي العلاقة من المختصين، ولكنّ اللغة تحيا وتزدهر بحياة المجتمع الذي ينطق بها، وبازدهار العلوم والآداب والفنون والمعارف والصناعات والتقانات التي يبدعها أهلها في المجالات كافة، فيرتقون في مضمار التقدّم المادي والمعنوي، ويتبوأون المكانة اللائقة بهم بين الأمم، فتكون لهم السيادة على لغتهم، لأنَّ لهم السيادة على مقدراتهم ومكتسباتهم. فاللغة تقوى وتكتسب المناعة ضدّ المؤثّرات الخارجية، حين تكون لغة العلم، ولغة المعرفة، ولغة الحياة التي تفرض نفسها وتملي شروطها، فلا تذوب في لغة أخرى، فتفقد هويتها، والأمة التي لا تنتج العلم، تضعف لغتها وتنكمش وتنعزل، وفي ضعف اللغة ضعفٌ للكيان كما هو معلومٌ لدى علماء الاجتماع اللغويّ.

ومما لا شك فيه أنّ العولمة تجد طريقها في مجتمعات مفرَّغة من الأصالة والجذور التاريخيّة؛ لأنَّ المخزون الثقافي لهذه المجموعات ضحلٌ، ولا يمكنه تسخير الفكر العالمي لمصلحته القومية، أي تفعيل موروثه الثقافي بأدوات معرفية أكثر جدة، مما أساء إلى نتاج

مختبرات الفكر القوميّة، وضاعف من تراكم الشوائب، وفرض حالة من التشويش الذهنيّ الذي تجلى في معظم المستويات اللغويّة.

نخلص من ذلك كلّه إلى ما يسمّيه بعض الباحثين (الأبعاد اللغوية لظاهرة العولمة) ؛ فسواء أكانت العولمة وفاقاً أم صراعاً، فاللغة – في كلتا الحالتين – شأن خطير ، فإن كانت (وفاقاً) ، فاللغة ذات شأن جليل في حوار الثقافات ، إذ من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علوم اللغة مرتكزاً أساساً لعولمة الثقافة ، وهم يميلون إلى تجاوز الخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب ، ويقفون بشدّة ضدّ النسبية الثقافية ، ومن ثمّ النسبية اللغوية ، وهم بلا شك سيجدون ضالتهم في التنظير اللغوي الحديث ، إذ تندرّج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة. أما إذا كانت العولمة (صراعاً)، فإن معنى ذلك سيادة لغة من لغات الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والإقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة، ممّا يُفضي إلى تهميش اللغات الوطنية واحتوائها. (نبيل علي، ٢٠٠١: ٢٣٢ – ٢٣٣)

اللغة العربية وصراع اللغات:

اللغة العربية هي إحدى اللغات الحيّة التي تعيش صراعاً لغوياً مع لغات متعدّدة، ساعدت على وجوده عوامل كثيرة، منها خارجية فرضها الواقع العالميّ المعاصر الذي نعيشه، وأخرى داخلية ناجمة من الواقع التاريخي الذي وصل إليه أهلها من الضعف في ميادين التعليم، والعمل، والسياسة والاقتصاد، والإعلام ...

واحتكاك اللغة العربية بغيرها من اللغات، في العصر الحديث، ظاهرة حضارية تفرضها الضرورة التاريخية التي لا يستطيع أحد أن يمنعها أو يعيقها على الرغم من تعالي الأصوات التي تحذّر من عواقب ذلك الاحتكاك، وتتمنّى لو تضرب سدّاً بين اللغة العربية وأيّ مؤثّرات خارجيّة قد تغيّر بعضاً من ملامحها أو أساليبها وتبعد بها عن الأصول أو الفروع، ربّما لأنّ أصحاب تلك الأصوات يخشون من افتقاد القدرة على التحكّم في مجريات هذه الظاهرة أو التنبؤ بنتائجها. ولكنّ هذه الظاهرة لا يمكن دفعها، وهي بالتأكيد ظاهرة طبيعية وصحيّة تمنح اللغة حيوية ومقدرة على المطاولة، كما كان الأمر في العصور الخوالي لازدهار الحضارة العربيّة، إذ حمل إليها الكثير من مظاهر التطور وعناصر القوّة، سواء أكان ذلك في مجال المفردات، أم في مجال التأثيرات اللغوية البارزة، خصوصاً في لهجات القبائل، والتي كانت تجاور أقواماً من غير العرب. وفي هذا السياق يرى فندريس: ((أنّ تطوّر اللغة المستمرّ، في معزل عن كلّ تأثير خارجي، يعدّ أمراً مثالياً، لا يكاد يتحقق في أيّ لغة، بل على العكس من ذلك، فإنّ الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات أخرى مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً

عامّاً في التطور اللغوي. ذلك لأنّ احتكاك اللغات ضرورة تاريخية)). (فندريس، ١٩٩٥: ٣٤٨)

واللغة، أيّ لغة، تنمو وتتجدّد بتأثير عاملين رئيسيين: أحدهما التولّد الداخليّ الذي يجري عفواً أو قصداً، فتنشأ الألفاظ والأساليب على ألسنة الناس وأقلامهم منبعثة عن سليقة لغوية تتّبع السياقات العامّة لروح اللغة وقواعدها في الصرف والنحو وأساليب التعبير.. والثاني التأثير الخارجي فيها وما يتسرّب إليها من لغات أخرى، ثمّ يتأصّل فيها ويصبح جزءاً ثابتاً منها. ومن ذلك ما استقرّ في اللغة العربية من ألفاظ وأساليب على توالي العهود فأصبح بمنزلة الفصيح من كلامها (شوشة، ١٩٩٩: ٩٥). وكلا العاملين يعملان معاً في كلّ عصر، ولكنّ الغلبة قد تكون لأحدهما على الآخر بحسب مستوى التقدّم الحضاري الذي يبلغه المجتمع، وبحسب موقع المجتمع في علاقاته مع العالم الخارجيّ. وتطوّر اللغة على كلتا الحالين يعبّر عن جوهر الصراع الحضاري الذي يشهده أهلها.

لقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والمعارف والفنون والآداب جميعاً، عندما كانت الحضارة الإسلامية في أوجها، وكانت العلوم لا تدرس إلا باللغة العربية، وكانت المراجع العلمية المعتمدة في جامعات أوروبا، حتّى مطلع القرن الثامن عشر، هي تلك التي كتبت باللغة العربية. و((ابتداءً من القرن التاسع – الميلادي – كان للعلم لغة هي العربية؛ حتى إن هذه اللغة بدورها أخذت بعداً كونياً، فلم تعد لغة لشعبٍ بل لعدّة شعوب، ولا لغة لثقافة معيّنة إنما لغة كل المعارف ولغة علم العالم. وهكذا فتحت معابر لم تكن موجودة من قبل، تسهل الاتصال المباشر بين المراكز العلمية المنتشرة ما بين حدود الصين والأندلس، كما وتسهل التبادل بين العلماء)) (رشدي، ١٩٩٧: ١/ ١٦). ولكن عندما أفلت الحضارة الإسلامية، وتراجع دور العرب والمسلمين في الساحة العالمية، بعد أن سرى الضعفُ في كيان الأمة، فقدت لغة الضاد مكانتَها، وزاحمتها لغاتٌ أخرى لأمم شتى تفوّقت وتقدّمت وتطوّرت، وازدهرت ازدهاراً حضارياً حتى بسطت لغاتها وفرضت نفوذها، ليمتدّا إلى مناطق واسعة من العالم.

ولقد تقلّصت اليوم الحدود المكانية والزمانية بين الشعوب والأمم بسبب التطور العلمي الحديث في شتى المجالات المختلفة، ممّا ساعد على سرعة الاحتكاك في جميع مجالات الحياة، فزادت حدّة (الصراع اللغوي) بين لغة مؤثرة تملك مقوّمات القوّة وأخرى متأثرة تفتقد كثيراً من عناصر القوّة. ومن الخطل التقليل من خطورة مشكلات اللغة فهي الوسيلة التي تتمّ بها عملية التفاهم والاتصال الفردية والجماعية، ولا معدى عن مواجهة ظاهرة صراعها وتبنّي السياسات الكفيلة بتجاوز كلّ التحدّيات والمساهمة في إنجاز التنمية الحضارية.

ومن الجليّ أنّ العربية تعيش في عصرنا هذا فوضى لغوية عارمة؛ وأبرز أسبابها انتشار وسائل الإعلام انتشاراً لم تعهده من قبل، واتّساع مديات الاتصال، وضخامة حجم المعطيات والمعلومات التي يتمّ تداولها، والإقبال غير المسبوق على استخدام اللغة، يقابل هذا ضعف مستشرٍ في العربية، حتّى لدى من يُفترض أنّهم من المختصين فيها، قبل أن يكون لدى غيرهم، فقد خرجت المؤثرات في الحياة اللغوية من أيدي المعنيين، وشقّت عليهم السيطرة على مجريات التغيير السريع والمتلاحق.

ويمكن النظر في قضية صراع اللغة العربية مع اللغات في عصر العولمة من جوانب متعدّدة أهمّها:

١- صراع العربية مع اللهجات المحليّة التي تحوّرت عنها، (ظاهرة ازدواجية اللغة).

٢- صراع اللغة العربية الفصحى المثالية النموذجية المدوّنة والعربية الاعتيادية المنطوقة.

٣- صراع العربية مع اللغات الأجنبية، (ظاهرة ثنائية اللغة).

فالناطقون باللغة العربية يعيشون في حال من ازدواجية اللغة: لغة عربية معيارية (فصحى) أسسها راسخة تاريخياً في البناء الحضاري العربيّ الإسلاميّ بفضل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والإرث الأدبي والفكريّ الذي يمتدّ مئات السنين، ولهجات عربية أصابتها صنوف مختلفة من التحوير والتبديل والتطوّر، أبعدتها غير قليل عن العربية المعيارية تلك.

نجد هذه الحال ماثلة في واقع اللغة العربية في العصر الحديث، إذ يقتصر تداول اللغة الفصيحة على جوانب معينة من الحياة الفكرية والثقافية، بينما نجد للعامية ظهورها وحضورها في أماكن ومواقع حيوية؛ كانتشارها على ألسنة العامة، وفي الإعلام بمجالاته المختلفة؛ مما يدل على أنّ تمثّل الفصحى يحدث صراعاً واضحاً مع العامية التي سيطرت على واقع المجتمعات العربية. ويمكن تعميم هذه الحال وبدون استثناء على جميع الدول العربية التي يحدث فيها صراع لغوي بين العامية والفصحى. وفي السياق نفسه نجد أنّ اللغة (الفصحى) المعيارية النموذجية ترتبط بالمكتوب والمدوّن في مساحة صغيرة نسبياً من الحياة الفكرية والثقافية، في حين يقوم التواصل العملي على استعمال اللهجات، أو خليط هجين من العربية. وتستحوذ هذه الظاهرة على مساحة كبيرة من عملية التواصل الاجتماعي والثقافي وحتّى الأكاديمي. وقد أشار (أحمد أمين) إلى هذه الظاهرة وضرورة معالجتها: ((لا أمل في إصلاح مصر مادام هناك لغة للعلم ولغة للكلام، فإما أن ترقى لغة الكلام، وإما أن تنحط لغة العلم حتى تتحدا، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح واللغة التي تستمدّ روحها من الحياة الواقعية)) (أمين، ١٩٧٢: ٨١). وهذا الربط بين إصلاح أحوال المجتمع وبين تطوير اللغة،

في تلك المرحلة المبكرة يثبت أنّ الوعي بضرورة مواجهة التحديات التي تحاصر اللغة العربية، لا ينفصل عن إصلاح المجتمع.

ولا يبدو أنّ الجهود التي تبذل اليوم من أجل حسم هذا النوع من الصراع لصالح اللغة الفصيحة؛ تسدّ الحاجة التاريخية الماسّة وتواكب التطوّرات المتلاحقة. ولعلّ العوامل المؤثّرة في اتجاه تضييق الهوة بين اللهجات وجمعها في العربية الفصيحة، لم تبلغ بعدُ مبلغاً كافياً يقترب بها مما جرى للعربية نفسها من صراع بين عدّة لهجات متفرقة كانت الغلبة في النهاية للغة قريش لعوامل كثيرة دينية وسياسية (عبد التواب، ١٩٨٥: ١٦٧) ...

أمّا الصراع اللغويّ الذي يكون بين العربية واللغات الأجنبية، فنجد أنّ العربية واجهت في العصر الحديث صراعاً لغوياً في الأقطار العربية مع عدة لغات أجنبية؛ كما حصل لها مثلاً في المغرب العربي مع اللغة الفرنسية، ودول الخليج العربي مع اللغة الإنجليزية. وكان هذا الصراع غير المتكافئ في الأساس مفروضاً على اللغة بعامل القوة الخارجية وما يتعلق به من قوة دينية وعسكرية واقتصادية وسياسية، ممّا وضع العربية في موضع التأثر والاقتراض والدفاع السلبي.

إنّ توسّع دور اللغات الأجنبية على حساب لغة الضاد من جهة، والتمسك باللهجات المحلية من جهة أخرى، من أهمّ أسباب المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية اليوم لأن أي إقصاء للغة العربية الفصحى لصالح أيّ لغة أخرى أو أي لهجة عامية، يعدُّ إضعافاً لها وتحجيماً لمكانتها ويسهم في إضعافها وفقدان هويتها وضياع تراثها.

وإذا كانت عوامل الصراع اللغوي بين العربية من جهة واللهجات العامّيّة واللغات الأجنبية من جهة أخرى، مختلفة في البلدان العربية من حيث النوع والكيف، ومتفاوتة من عصر إلى آخر، وكذلك تأثيرها ربّما كان سريعاً أو بطيئاً حسب ظروف ذلك العصر أو البلد؛ فإنّ الوعي اللغوي المرتبط بوعي النهضة والتنمية أخذ يشغل حيّزاً متّسعاً في حياتنا الثقافية والأكاديمية في أغلب البلدان العربية، وعلى أكثر من مستوى.

لقد ولّدت هيمنة النظام العالمي الجديد، على نحو مقصود أو غير مقصود، أخطاراً متفاقمة باطراد ما تزال اللغة العربية تواجهها اليوم، بوصفها وعاء للثقافة العربية وللحضارة الإسلامية. ويبيّن واقع الحال أن التطوّر الحضاريّ العلمي المتّسع والمتسارع لا يشكلّ تحدّياً للغة العربية وحدها ، ولا للغات التي في موقعها في التأثّر والأخذ ، وإنّما هو تحدٍّ حقيقيّ أيضاً للغة المؤثّرة التي تنتج الحضارة المتقدّمة أو تأخذ بزمام حركتها ، لأنّ اللغة أيّة لغة لا تملك ، في كلّ حين ، ما يستوعب المنجزات الحضارية لأهلها ، لذلك نفترض أنّ اللغة المؤثّرة الغالبة والمهيمنة –الإنجليزية مثلاً– تعاني هي أيضاً من مشكلات حقيقية في الجهد اللغويّ عامّة ، وفي وضع المصطلحات خاصّة ، من أجل اللحاق التقدّم الهائل .

مقترحات وتوصيات لحل مشكلات العربية في عصر العولمة:

تواجه اللغة العربية في العصر الحديث قضايا فرضتها متطلبات العصر ، والعربية ليست متفردة بذلك من دون اللغات ، بل ربّما كانت قضاياها أقلّ عسراً للمعالجة ، إذا ما صدقت النوايا وتوافرت الإرادة في خدمة العربية وإنماء الاعتزاز بها ، والإيمان بقدراتها (خليفة، ١٩٩٣: ٣٦٣)، ولا بدّ ، كما يرى الدكتور عبد اللّه الطيب ، من العمل على ((إعادة اللغة العربية إلى بعض ما كان لها من مكانة في حفظ الثقافة والعزة القومية والمعارف الإسلامية، من إعادة النظر في أمر تعليم اللغة العربية تعليماً صحيحاً ييسر بغرض التفهيم، لا بغرض تجاوز العزائم إلى الرخص، والرخص إلى اللحن، واللحن إلى العُجْمة وشبه العُجْمة. ولا يكون التعريب الحق باستخدام ألفاظ أعجميّة وجمل أعجميّة ونصوص أعجميّة حروفُها وبعض نطقها وتركيبها كأنّه عربيّ، إنما يكون التعريب الحق بأداء عربيّ الروح عربيّ الأسلوب مبين)) (الطيّب، ١٩٩٨: ٥٣٧)، فاللغة العربية في حاجة ماسّة إلى مسايرة العصر، والتعبير عن فكر العصر وروحه، بل تسهم في خلق هذا الفكر العصريّ.

ولا نغالي إذا أكّدنا على أنّ أزمة اللغة العربية هي جزء من مشكلة أعمّ ، هي مشكلة التخلّف ، وما لم نبحث مظاهر التخلّف في بنية العقل العربيّ ، وأسبابه ؛ فستبقى أزمة العربية قائمة دون حلّ جذريّ ، فالتخلّف الذي تعاني منه العربية في التدريس والبحث العلميّ والتخطيط مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتخلف العام الذي يعاني منه العرب إجمالا على مستوى الفرد والمجتمع والدولة ، ويبدو أنّ ثمة علاقة طردية بين التقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلمي من جهة ، والتحسن في مستوى تدريس العربية الفصيحة واتقانها وتقدم البحث فيها من جهة أهرى ، يقول علي وافي: ((فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورقي تفكيرها ، وتهذيب اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها)). (وافي، ١٩٧١: ١١)

وسواء أ نظرنا إلى اللغة من زاوية الاستخدام أم التدريس، أم البحث، أم التخطيط، فإنه من المعقول القول : إنّها في أزمة ، وإنّ التخلف العامّ الذي نعاني منه مسؤول عن هذه الأزمة ، ففي مجال الاستخدام لا شكّ أنّ الجهل ، والأمّيّة مسؤولان عن انتشار العامية، كما أنّ الروح الانهزامية، وهيمنة اللغات الاستعمارية مسؤولان عن زحزحة مكانة العربية لصالح الإنجليزية والفرنسية، وفي مجال التدريس، والبحث، والتخطيط نجد أنّ اللامبالاة، وغياب المنهجية وعدم وجود آليات التراكم المعرفي ماهي إلا بعض الأسباب التي أدت إلى انحطاط مكانة العربية. (يونس علي، ٢٠٠٤: ٦٦٠)

ولقد سعت بعض المؤسسات والهيئات، إلى العمل على تقديم توصيات ووضع آليات ناجعة وأسس صحيحة تستجيب لتطلعات المجتمع العربي، وتعبّر عن الحاجات الحقيقية إلى التطوير والتحديث في قضايا اللغة وما يتّصل بها لمواكبة العصر وللتفاعل مع العولمة. ونجد من ذلك مثلاً التوصيات الصادرة عن الندوة التي عقدت في الرباط في سنة ٢٠٠٢ تحت عنوان: "اللغة العربية إلى أين؟". وجاء منها ما يأتي:

١- تعزيز الثقة باللغة العربية، والاعتزاز بها حفاظاً على كيان الأمة، وترسيخاً لشخصيتها ووجودها. واعتبار التفريط في اللسان العربي القرآني تفريطاً في الهوية، ويتصل بذلك تقدير التراث العربي الإسلامي والعناية به وإبراز دوره في الحضارة الإنسانية من خلال أمثلة واقعية.

٢- التوسع في نشر اللغة العربية بمختلف الوسائل، وتقدير ودعم كل الجهود التي تبذل في هذا السبيل على مستوى الدول والمنظمات والمجامع والأفراد، وتهيئة الفرص للمزيد من العناية بنشرها لغة وثقافة وحضارة، وتمتين الصلة بين الجهات المعنية بهذا الدور وطنياً وإقليمياً وعالمياً، من أجل تطوير الكيف والكم في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

٣- أن تتولى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو)، ومجامع اللغة العربية إصدار استراتيجية لنشر تعليم اللغة العربية وخطة شاملة للعناية بها في المناهج الدراسية والكتب المنفذة لها، والوسائل المعينة على نشرها في مختلف المستويات، على أن تسعى هذه الجهات إلى الحصول على الدعم المادي والمعنوي من الدول العربية والإسلامية وجهات التمويل المعنية بتفعيل برامج هذا المشروع.

وفي هذا الاتّجاه عمل غير قليل من المختصّين المخلصين لهذه اللغة والمؤمنين بضرورة استنهاضها على تقديم دراسات ومقترحات ، من ذلك مثلاً المنهج التكاملي الذي اقترحه الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري ، وقوامُه أن تواكب الجهود التي المبذولة على مستوى مجامع اللغة العربية في الوطن العربي وعلى مستويات أخرى في أقسام اللغة العربية بالجامعات العربية ، التطورَ الذي يجري على اللغة بحكم تأثير وسائل الإعلام فيها، وأن يساير الوضعَ الحاليّ للغة العربية ، فلا يرتفع عنه ، ولا يستهين به ، وإنّما يتفهمه ويستوعبه، بحيث لا يتم خارج نطاق الواقع، وإنما يكون جزءاً من هذا الواقع، يتفاعل معه تفاعلاً إيجابياً، ينتج عنه ازدهار اللغة العربية وانتشارها، والحفاظ عليها وحمايتها، وتطويرها وتجديدها . ولهذا المنهج الذي يدعو إلى اعتماده في وسائط الإعلام عموماً، أربع قواعد أوجزها فيما يأتي (التويجري):

١- التعامل مع اللغة على أساس أنها كائن حيّ قابل للتطور وفق ما يقرره أبناء اللغة، فهو تطوّر يأتي من إرادة الناطقين بها، ويصدر عنهم، لمقتضيات المصلحة في هذا التطوير.

٢- إحكام العلاقة بين عملية تطوير اللغة وإصلاحها وتحسينها وتجديدها، وبين المتغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية، بحيث تكون عملية التطوير استجابةً لتطور المجتمع .

٣- الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفريعاته والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعاً في إغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني .

٤- الاهتمام بالجانب القانوني والتشريعي في عملية التطوير، حرصاً على ضبط مساره والتحكم في نتائجه، من خلال وضع قوانين تصادق عليها الجهات الرسمية المختصة، لفرض هيبة اللغة وإلزام أفراد المجتمع والهيئات والجماعات ووسائط الإعلام باحترامها طبقاً للقانون. أسوة بما هو عليه الأمر في بعض الدول الغربية، ومنها فرنسا على سبيل المثال.

إنَّ مستقبلنا العلمي والحضاري مرتبطان بقضية تعريب العلم والتعليم، وهذا يتطلب أن تصبح اللغة العربية لغة منتجة للعلم، لتتبوأ المكانة الرفيعة بين لغات العالم. ويوم أن كانت العربية في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، لغة للعلم بمدلوله الدقيق الشامل، ارتقت إلى الذروة، وحازت قصب السبق بين اللغات العالمية، حتى صار طالب العلم من أي ملة أو عرق كان، يتخذ من العربية وسيلة لاكتساب العلوم والإحاطة بها والتبحر فيها.

ولعلّ من الضروريّ أن تكتسب قضيّة اللغة العربية، بعداً إستراتيجيا يمسّ الأمن الثقافي والحضاري للمجتمع العربيّ، إنَّ التفكير في مستقبل اللغة العربية قضية بالغة الأهمية، في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لها صلة وثيقة بسيادة الأمة العربية الإسلامية على ثقافتها وفكرها، وعلى كيانها الحضاري والسياسي والاقتصادي في المقام الأول، وعلى حاضرها ومستقبلها؛ فهذه (قضية سيادة) بالمعنى الشامل للكلمة، وليست مجرد قضية لغوية وأدبية وثقافية.

فالمسألة، في وجوهرها، تتطلب يقظة أشمل وأعمق، وحركة أكبر وأنشط، وعملاً أكثر جديةً وفعالية، واستنفاراً للطاقات الحيّة وحشداً للجهود المخلصة، في إطارٍ من التنسيق والتكامل والتعاون، والعمل العربي المشترك على مستوى المنظمات والمؤسسات والجامعات والهيئات المختصة، من أجل توسيع نطاق تعلم اللغة العربية وإجادتها، وتيسير تعليمها.

مصادر البحث

١- الكتب:

١. أمين، أحمد حياتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م.
٢. بيار اشار، سوسيولوجيا اللغة، تعريب عبد الوهاب ترّو، بيروت – منشورات عويدات، ١٩٩٦ م.
٣. حامد خليل، الثقافة العربية وحوار الحضارات، فصل من كتاب نحو مشروع للنهضة العربية في القرن الحادي والعشرين، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق ١٩٩٩م.
٤. خليفة، عبد الكريم ن العربية لغة البحث العلمي والتعليم الجامعي على مدرج القرن الواحد والعشرين، ضمن كتاب (قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٣ م.
٥. سليمان، سمية عبد القادر، المجتمع العربي بين التمسك بالهوية والاندماج العالمي، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ٢٠٠٦م
٦. شوشة، فاروق، لغتنا الجميلة، مطابع الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٩م .
٧. عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط٢، مكتبة الخانجي، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٨. غارودي، روجيه، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨ م.
٩. الفاسي، عبد القادر، التربية والتعليم واللغة عند علال الفاسي، ضمن كتاب (في رحاب فكر علال الفاسي)، مؤسسة علال الفاسي، الرباط، ٢٠٠٠ م.
١٠. فندريس، اللغة، ترجمة محمد القصاص وعبد الحميد الدواخلي. بيروت ١٩٩٥.
١١. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٥)، أيار ٢٠٠١م.
١٢. وافي، علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧١م .

٢- الدوريات:

١. أبو زيد، أحمد، اللغة والفكر، مجلة (عالم الفكر)، مج ٢ ع ١، أبريل – مايو – يونيو ١٩٧١م.
٢. أبو زيد، أحمد، حضارة اللغة، مجلة (عالم الفكر)، مج ٢ ع ١، أبريل– مايو– يونيو ١٩٧١ م.
٣. بوملحم، أحمد، العرب والتحديات الحضارية، دار الفارابي للنشر والتوزيع – بيروت، ٢٠٠٦م.
٤. الجابري، محمد عابد، عشر أطروحات حول العولمة والهوية الثقافية، جريدة (السفير)، ١٩٩٨/١٢/٢٤ م.
٥. الزغبي، آمنة بنت صالح، المرحلية اللغوية قراءة مقارنة تاريخية في نشوء اللغات وموتها، مجلة (جامعة أم القرى)، ج ١٨ ع ٣٧، جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.
٦. الصديق، حسين، الإنسان والسلطة (إشكالية العلاقة وأصولها الإشكالية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – ٢٠٠١ م.

٧. الطيّب، عبد الله، مشكلة الأداء في اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٧٣)، الجزء (٣) صفحة ٥٣٧، يوليو ١٩٩٨ م.
٨. عبد الجبار، فالح، تأملات في الثقافة العربية على مشارف القرن الحادي والعشرين، مجلة النهج، شتاء ١٩٩٨ م.
٩. يونس علي، محمد أزمة اللغة ومشكلة التخلّف في بنية العقل العربي المعاصر، مجلة جامعة (أم القرى)، ج ١٧ ع ٢٩، صفر ١٤٢٥ هـ.

٣- مواقع الإنترنت:

التويجري، عبد العزيز بن عثمان، اللغة العربية وتحدّيات العولمة، رؤية لاستشراف المستقبل، موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، على الرابط :
http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Allogha%20Arabia/menu.php

REFERENCES:

1. Abdul Tawab, Ramadan, Entrance to Linguistics and Language Research Curricula, I2, Khanji Library, 1405 Ah / 1985 AD.
2. Abdul-Jabbar, Faleh, Reflections on Arab Culture on the Surrounding of the Twenty-First Century, Al-Nahj Journal, Winter 1998 .
3. Abu Zaid, Ahmad, "The Civilization of Language" Journal of (Alam al-Fikr), Vol. 2 p. 1, April – May – June 1971 .
4. Abu Zaid, Ahmad, Language and Thought, Journal of (Alam al-Fikr), Volume 2, vol.1, April - May - June 1971.
5. Al-Jabri, Muhammad Abed, Ten Theses on Globalization and Cultural Identity, (As-Safir) Newspaper, 12/24/1998 AD .
6. Al-Siddiq, Hussein, Man and Power (The Problematic Relationship and Its Problematic Origins), Arab Writers Union Publications, Damascus - 2001 AD .
7. Al-Tayyib, Abdullah, The Problem of Performance in the Arabic Language, Journal of the Arabic Language Academy in Damascus, Volume (73), Part (3) Page 537, July 1998 AD .
8. Al-Tuwaijri, Abdulaziz bin Othman, Arabic language and the challenges of globalization, a vision for future foresight, the website of the Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization - ISESCO, at the link: http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Allogha Arabia/menu.php .
9. Al-Zoghbi, Amna Bint Saleh, The Linguistic Stage, a Historical Comparative Reading in the Emergence and Death of Languages, Umm Al-Qura University Journal, vol. 18 p. 37, Jumada al-Akhirah 1427 AH - 2006 CE .
10. Amin, Ahmed Hayaty, Arab Book House, Beirut, 1972.
11. Boumelhem, Ahmad, The Arabs and the Challenges of Civilization, Dar Al-Farabi for Publishing and Distribution - Beirut, 2006 .

12. El Fassi, Abdelkader, Education and Language at Allal El Fassi, in the book (In Rehab Fikr Al-Fassi), Al-Fassi Foundation, Rabat, 2000 AD.
13. Garudi, Roger, Dialogue of Civilizations, Translated by Adel Al-Awa, Aweidat Publications, Beirut, 198 AD.
14. Hamed Khalil, Arab Culture and Dialogue of Civilizations, chapter of a book towards a project of the Arab Renaissance in the 21st century, Arab Center for Strategic Studies, Damascus 1999.
15. Hogan, J. (1999). The Construction of General National Identities in Television Advertisement of Japan and Australia. Media Culture & Society, vol, 21(6) P. 744.
16. Khalifa, Abdelkarim N Arabic language of scientific research and university education on the 21st-century runway, in the book (Issues of The Use of Arabic in Morocco), Publications of the Academy of the Kingdom of Morocco, Rabat, 1993.
17. Nabil Ali, Arab Culture and the Information Age Vision for the Future of Arab Cultural Discourse, World of Knowledge Series (265), May 2001.
18. Pierre Achar, Linguistics, Arabization of Abdelwahab Tru, Beirut - Aweidat Publications, 1996.
19. Shosha, Farouk, our beautiful language, printing presses of the General Book Authority - Cairo 1999.
20. Suleiman, Somaya Abdel Kader, Arab Society between Adherence to Identity and Global Integration, World Center for Green Book Studies and Research, 2006
21. Vendres, language, translated by Mohammed al-Qassas and Abdelhamid Al-Dawakhli. Beirut 1995.
22. Wafi, Ali Abdel Wahid, Language and Society, Cairo, Renaissance House of Egypt for Printing and Publishing, 1971.
23. Yunus Ali, Muhammad The Language Crisis and the Problem of Underdevelopment in the Structure of the Contemporary Arab Mind, University Journal (Umm Al-Qura), vol. 17 p. 29, Safar 1425 AH.